مثقفون لبنانيون يتحدثون عن الحرب الى مجلة فرنسية:

كما لو أن التاريخ يعيد نفسه!

تحقيق: لوسي جيفرو

ترجمة: د. سعيد بوخليط

■ في نيسان (أبريل) الماضي، توجهت المجلة الفرنسية Le magazine littraire الى بيروت قصد لقاء بعض أدباء وكتاب لبنان في اطار تحقيق حول نهضة الأدب الفرانكفوني اللبناني. يوم 12 تموز (يوليو) الأخير، اندلعت الحرب هناك. مع هذا السياق الجديد، بدت لنا مشروعية اعطاء الكلام من جديد لكل هؤلاء الأدباء. كيف تفاعلوا مع الحرب التي أنهكت بلادهم؟ بين الالتزام النضالي وكذا الرغبة في التموقع بعيدا عن الانشطارات السياسية، يتوخى كل واحد ايجاد مكان له واسماع صوته. الشهادات:

الياس خوري

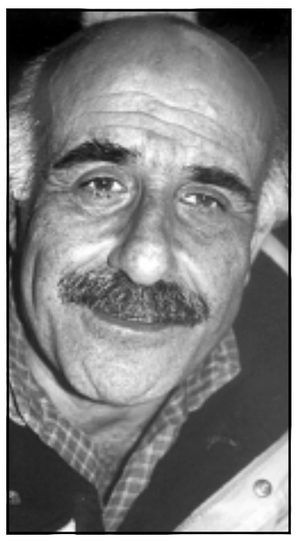

عباس بيضون

1) الكسندر النجار: لقد شعر أغلبنا بالصدمة. وأفزعتنا رؤية عودة الحرب الى بلدنا. نفكر في سلام جد دائم لكن ها هو كل شيء يتقوض. يشرح ذلك بهدوء الكسندر النجار، أحد أدباء لبنان الأكثر مكانة بين أبناء جيله، ثلاثة أسابيع بعد بداية النزاع. صاحب رواية قصيرة تحمل عنوان: l'cole de la guerre. **استحضر من خلالها الحرب الأهلية اللبنانية (1975/1990)، عبر رؤية طفل صغير من بيروت. ويستطرد قائلا: «كنت في الثامنة من عمري حينما اشتعلت الحرب سنة 1975. واليوم لدي طفل يبلغ من العمر ثمانية سنوات، ثم أتفاجأ لكوني أتكلم بنفس المقولات المطمئنة التي كنت ألتقطها من فم أبي. كما لو أن التاريخ يعيد نفسه».**

مثل كثير من أدباء لبنان الذين يعيشون في بيروت. فقد تجاوز الكسندر النجار ردود الفعل الأولى الغاضبة والمنفعلة، والانتقال سريعا الى الصحافة الوطنية والدولية من أجل الحديث عن النزاع. لقد كتب بالخصوص زاوية حرة بجريدة «لوموند» Le monde 2 تحت عنوان: «الحرب من منظور لبنان»، كجواب عن المقالة التي كتبها برنار هنري ليفي: «الحرب من خلال وجهة نظر اسرائيلية». ودحض الأطروحة التي تؤكد بأن لبنان: «قد خول لجيش ماكر (حزب الله)، اقامة دولة له، داخل الدولة». لقد تطور حزب الله، حقيقة يؤكد الكسندر النجار. في ظل الاحتلال السوري وبدعم ايراني: «قليل هم الأدباء، الذين لا زالوا بعد يدركون معنى أن تتحرك من أجل قضية. يضيف الكسندر النجار، فعلى الكاتب كما قال سارتر، الالتزام بـ«موقف في حقبته»».

2) كاتب ومواطن:

تقليديا، كان لرجال الآداب في لبنان موقع مهم على أعمدة الجرائد، أكثر مما يحدث في فرنسا. وبالتالي، ليس من النادر أن تقرأ مقالات افتتاحية يوقعها أدباء وشعراء. بل ان البعض منهم، يشغل منصب رئيس تحرير أو صحافي في الملاحق الثقافية لليوميات. كما هو الشأن مع الياس خوري في يومية «النهار» الأكثر مقروئية في لبنان، وعباس بيضون أو اسكندر حبش بجريدة «السفير»: «لا يمر يوم، دون أن يبدي مثقف أو مفكر عن رأيه عبر الصحافة، يشير فارس ياسين المستشار الأدبي بدار النشر النهار. أثناء الحرب الأهلية لم يتوقف الصحافيون وكذا الكتاب عن الظهور من أجل التعبير عن رأيهم يوميا. نفس الأمر يحدث اليوم».

الياس خوري، الذي يشغل رئيس التحرير في الملحق الأسبوعي لـ«النهار»، يدافع عن فكرة أن الأديب مثل كل شخص هو مواطن. «حينما يهاجم وطنك، ويقتل شعبك، فان كل الوسائل تصير جيدة لكي تقاوم. كصحافي، أدلي بشهادتي من خلال الجرائد. لكن كمواطن، أتوخى تقديم المساعدة داخل مراكز اللاجئين. من موقعي، ككاتب لا يمكنني الآن فعل أي شيء. ذلك أن اللحظة ليست لكتابة روايات».

3) ايمان حميدان يونس: لا شيء آخر، يمكن توخيه غير السلم.

صاحبة عمل: Ville Ö vif. وهو صور متعددة لاربع نساء أثناء الحرب الأهلية. تؤكد هنا بأن الأدب يظهر لها في غير محله: الكلمات الوحيدة الممكنة زمان الحرب هي: «أوقفوا هذه الحرب». ثم تضيف بنوع من التحسر: لست مستعدة لكتابة شيء آخر. بصراحة، راجت منذ البداية عرائض نداء من طرف كتاب ومفكرين كل واحد يدافع عن وجهة نظره: لبناني، عروبي، مناصر لحزب الله، عوني، الخ... رفضت توقيعها. حينما يتم اغتصاب سمائنا وأرضنا وبحرنا، فلا يمكن التماس أي شيء آخر غير السلام».

كتبت ايمان حوميدان زوايا حرة، في بعض الجرائد الألمانية والسويسرية، وذلك للتحذير من مخاطر البلاغة: «يتكلم الأمريكيون عن الديموقراطية والسلام، لكن ذلك لا يمنعهم من قتل الأطفال. ويتحدث حزب الله عن الكرامة والشرف، بيد أنه لا يفعل شيئا من أجل حماية هؤلاء الأطفال. اللغة ذاتها تجن! ليس هناك أي شيء: الديمقراطية أو السلام أو الكرامة أو الشرف، حينما يموت هؤلاء الأطفال مثل طيور أو جرذان»!

4) شريف مجدلاني: التوقف عن الكتابة، يعني القيام بلعبة الحرب.

عمل مؤلف Histoire de la grande maison على اسماع رأيه بمقالة تحمل عنوان: «الهوية اللبنانية النزاعية»، عبر الصفحات الارتدادية لجريدة «ليبراسيون»، مذكرا بالسياق العام والتاريخي لاختطاف الجنديين الاسرائيليين والحرب التي قادتها اسرائيل ضد لبنان منذ منتصف شهر تموز (يوليو).

وقد أكد، بأن لبنان منذ ظهوره عرف دائما مواجهة بين مفهومين لهويته: الهوية «اللبنانية» التي ارتكزت على رؤية مستقبل لبنان بمعزل عن محيطه العربي، من خلال نسج روابط متميزة مع الغرب. ثم الهوية «العروبية» التي تدعو الى مصير مشترك مع الأوطان العربية: «لا يمكننا تصور، بأنه الى غاية 2005(3)، تمكن أخيرا اللبنانيون بطوائفهم المختلطة من الاتفاق حول رؤية مشتركة بخصوص لبنان، يروي شريف مجدلاني. باستثناء حزب الله (...) الذي وظف من جديد خطاب الوطنية العربية، وقد عضده بمدد من الفكر الاسلامي. لكي يبدع ثانية الخطاطة القديمة، التي يتم الاعتقاد على ضوئها بالانقياد وراء التلويح بسلطة تحيي مرة أخرى المفهوم القديم للبنان، الذي ظل يعتبره أرضا لصراع مقدس ضد الغرب واسرائيل».

يحكي شريف مجدلاني أيضا، بأنه بعد غضبه وهو يرى تورط بلده لبنان من جديد في الحرب، أحس بالذهول: «أصبت بعجز تام في الأيام الأولى، لا يمكنني فعل أي شيء. ثم بدا لي، بأن التوقف عن الكتابة يعني القيام بلعبة الحرب. لذا، عدت الآن لكتابة رواياتي ثانية. وأنا أقول لنفسي، بأن أفضل وضع يمكن معرفته، هو التأسيس ضد الجنون المدمر الذي يكتنفنا».

5) المقاومة مع الشرق الأدبي:

الخميس 3 اب (اغسطس)، أي في اليوم الثالث والعشرين من النزاع، صدر العدد الثاني من «الشرق الأدبي» l'orient littraire، الملحق الشهري لليومية الفرنكوفونية الكبيرة l'orient le jour. نشرة قديمة(4) توقفت عن الصدور سنة 1960. تم بعث الشرق الأدبي l'orient lit-traire، الربيع الماضي بمبادرة من الكسندر نجار وعشرات الكتاب اللبنانيين من بينهم: شريف مجدلاني، رامي الزين، وأنطوان بولاد ...الخ: «أواخر تموز (يوليو)، طرحت مسألة توقيف الشرق الأدبي l'orient littraire، يعترف الكسندر نجار. لقد تساءلنا: هل كان حقا شيئاً مُلحاً العمل على اصدار هذا الملحق، بينما هناك مدنيون يقتلون؟ هل ذلك لائق أخلاقيا. أليس من الأفضل انتظار انتهاء الأزمة؟ لكن قلنا أيضا بأن الرفع من الثقافة والأدب زمان الحرب، يمكن أن يشكل في حد ذاته فعل مقاومة. طريقة لتأكيد: نحن دائما منتصبون».

جاء عدد شهر اب (اغسطس) متضمنا خمس عشرة قصيدة لكتاب لبنانيين، تدين الحرب. وأعلنت النصوص عن نفسها تحت عنوان: «شرف الشعراء». في احالة على بول ايلوار الذي كتب أثناء الحرب العالمية الثانية مجموعة من النصوص النثرية الملتزمة دعا عبرها الى تعبئة شعراء فرنسا.

أنطوان بولاد، هو نفسه شاعر فرانكفوني، ومكلف بزاوية الشعر في الملحق. يدعم الفكرة التي تؤكد بأن على الكاتب واجب الالتزام باختيار عقائد ايمانية ضد الحرب: «دون السقوط في الفخ الذي ينصب لنا ـ الاستهلاك في سجالات سياسية ـ أريد فقط أن أقول بأن العنف لا يولد الا العنف، وبأن الحرب تنشأ من غياب العدالة. يجب أن نصرخ ضد ذلك بكل ما أوتينا من قوة».

6) آلة بوق تحت القنابل:

كان على أنطوان بولاد هذا الصيف، أن يقوم بزيارة لمراكز القراءة والتنشيط الثقافي «CLAC»(5) من أجل بعض القراءات بالقرب من الشباب. لكن: «مع الأسف، الحرب تطوعت لذلك. وهي التي تجول لبنان اليوم، يضيف. لكن سأحاول توظيف ذلك مع الأطفال اللاجئين في المركز الذي يوجد على مقربة مني، والسعي لوضع مشاريع ثقافية داخله».

من جانبها ريتا بادورة، 26 سنة، شاعرة واعدة ـ تعتبر واحدة من الشباب الذين سيحملون لواء الأدب الفرانكفوني اللبناني ـ تميز رد فعلها بخلقها لموقع اليكتروني يسمى: «ريتا بادورة بين القنابل»(6). تقول: «جاء الحدس، حينما اكتشفت بعد أيام قليلة من بداية الحرب موقع مازن كرباج، رسام وشاعر شاب من بيروت، حيث يحكي من بين رسوم كثيرة، أنه أثناء القصف الجوي المستمر على الضاحية الجنوبية لبيروت، خرج الى شرفته وأخذ ينفخ في آلة بوق Trompette لكي يصاحب أو يتحدى صوت القنابل. لقد وجدت ذلك مثيرا! أردت أنا كذلك الخروج من قصوري الذاتي والاحساس بأنني أتفاعل».

7) أين اذن اختفى سوبرمان؟

النصوص الأولى التي بعثت بها ريتا، تميز أسلوبها بطابع الدعابة، وهي تتكلم خاصة عما رأته عبر شاشة التلفاز. فقد لاحظت بأنه في هذه الشاشات تم وبسرعة تجميع القذائف الجنسية المهبطية (هيفاء، اليسا ونانسي..) داخل خزانة بأسلحة تسمى : الفجر، الرعد أو الكاتيوشا. وبقي المدنيون ثابتين تحت أنقاض منزلهم، لتتساءل ريتا: «أين اذن اختفى سوبرمان؟».

شيئا فشيئا أضحت النصوص في الآن ذاته أكثر جدية وشعرية:

De la peur est forge l'insomnie»
des combattants/leur colre fige
dans un lac de ciment / leur crÉnes
galets luisants oó la rass sont ces
mort se mire».

تشرح «ريتا بادورة» ، تطور موقعها الاليكتروني قائلة: «تعكس النصوص حالتي الفكرية. انها هنا لكي تمنح القراءة، وأن نرى شيئا آخر غير ما ينتقيه لنا التلفاز أو الجرائد. تعيش أثناء الحرب كحيوان، تأكل تتبول وتنام بل تمارس الجنس، غير ذلك لا تفعل شيئا. ما تقرؤه وتراه هو الغائط. أتجرأ بأن أتوخى من الكتابة، أن تحمل لنا شيئا آخر، شيئاً لا غنى عنه: الغذاء الروحي».

8) مواقع اليكترونية تحت القنابل؟

تحولت الهواتف المحمولة وكذا الانترنيت أثناء الحرب، الى أدوات تواصل لا محيد عنها. ما ان انفجرت القذائف الأولى، حتى ظهرت مواقع كثيرة على الشبكة العنكبوتية، تأثرا بذلك الذي أنشأته الشاعرة الشابة ريتا بادورة. من بين أصحاب تلك المواقع، نجد البعض منهم ينتمي للحقل الفني اللبناني الذي انبعث منذ سنوات 1990 مثل مازن كرباج:

mazenkerblog. blogspot.com شاعر ومؤلف في مجال الرسوم المتحركة، صدرت بشكل تتابعي عن منشورات La CD tchäque ـ كما أخرج بشكل منتظم مجموعة من النصوص والرسوم الطريفة، تحكي عن يومه ببيروت.

استغل موسيقيو الثنائي Lumi بدورهم صفحتهم my space:

www.myspace.com/lumisounds

من أجل استدعاء مشاعرهم بطريقة شخصية جدا. كيفما كانت، فان كل هذه المواقع تشهد عن ارادة في المقاومة ان لم تكن فكرية فهي على الأقل رمزية.

1 ـ للاطلاع على هذه المقابلات التي أجرتها المجلة الفرنسية الشهيرة: Le magazine littraire، يمكن الرجوع الى العدد 456، ايلول (سبتمبر) 2006، ص 14/10.

2 ـ جريدة «لوموند»: الثلاثاء 1 اب (اغسطس) 2006.

3 ـ احتشد في ربيع 2005، أي بعد شهرين من اغتيال رئيس الوزراء رفيق الحريري، عدد من اللبنانيين من طوائف مختلفة وجل الأحزاب، في تظاهرات شعبية مختلفة. ومعبرة عن ترحيبها بالاجماع لرحيل الجيش السوري.

4 ـ كان ظهور الشرق الأدبي L'orient littraire **سنة 1929. أشرف عليها لمدة طويلة الشاعر جورج شهادي، وبعده أصبح صلاح ستيتيه رئيسا للتحرير من 1956 الى 1961.**

5 ـ مؤسسات خلقها وزير الثقافة عام 2001، في اطار سياسة للقراءة الشعبية، وذلك لصالح دمقرطة عملية الوصول الى منابع المعرفة.

chez- rittabaddouraparmilesbombes .com.blog

بين غيمتين، بين لغتين

رشيد برهون*

■ بين غيمتين يستظل النص بالانتماء المتعدد المزدوج، وبين لغتين ينتصب المثنى ليخلق التباس الانتماء إلى المترجم والكاتب، ولكن أليس المترجم كاتبا؟ ولم الهوس بنسبة النص؟ ألم يتحرر النص من الأب الواحد ليصبح ملكا لقرائه؟ لعالم الكتابة قوانينه الخاصة، وأولها أن له آباء بعدد قرائه، وهم في ديوان «بين غيمتين» مزدوجي اللغة ليصبحوا حينها مخيرين بين النظر هنا وهناك، ليتابعوا الحوار بين لغتين وشاعرين، أو بالأحرى بين شاعرة وشاعر، وداد بنموسى وجلال الحكماوي. وقد يكون قارئ الديوان أحادي اللغة، لينصت حينها إلى أحد الصوتين الشاعرين، منطلقا من اليمين إلى اليسار، أم من اليسار إلى اليمين، فالصفحتان المتقابلتان تنضحان معا شعرا، قد يفيض عنهما ليتابع سيره الشفيف أصداء ومعاني تهجس بها نفس القارئ، فقارئ الشعر لا بد أن يكون شاعرا وهو يقرأ الشعر، ومترجم الشعر لا بد أن يكون شاعرا، قد لا يكتب قصائد، ولكنه يترجم الشعر شعرا أبعد من الوزن والقافية والروي، وأقرب إلى روح الشعر، يجتمع الشعراء إذن في حضرة القصيدة، هذا يكتبها أولا، وهذا يرحلها إلى اللغة الثانية ليعيد كتابتها، وهؤلاء يقرأونها أي يعيدون كتابتها مرات ومرات تعادل مرات قراءاتها.

هكذا ألخص تجربة مرسم وقد اختارت أن تعيد الترجمة إلى أصلها، لتعدها كتابة أصيلة لا تستنسخ، ولكنها تنسخ النص، بالمعنى المزدوج الملتبس للفظة النسخ أي كمحو وكمضاعفة. نسخ الشيء: كرره، ونسخ الشيء أي محاه، نحن إذن في قلب فعل الترجمة والكتابة، أي في المرسم وهو اسم مكان يلتقي فيه الشعراء ليترجم بعضهم بعضا.

تراهن تجربة مرسم في صيغتها المزدوجة اللغة على شجاعة المترجم وهو يكشف أوراقه، وقد التقى في الفضاء الواحد النص المصدر والنص الهدف، لتنطلق عملية المقارنة والانتقال بين النصين واللغتين، وتتناسل الأسئلة حول هذه الكلمة أو تلك، وهذه الصورة أو تلك، إما من منطلق البحث عن تطابق مستحيل يختزل الترجمة في عملية إيجاد المقابلات اللفظية ولا يعدها سوى عملية نقل حرفي يسعى إلى الأمانة بمعناها الأخلاقي الضيق، وإما من منطلق الإقرار بأن الخيانة في الترجمة، ولا سيما في الترجمة الشعرية، هي أفضل أشكال الأمانة. وتراهن هذه التجربة أيضا على سماحة الشاعر وهو يرى النص الأجنبي يزاحم نصه العربي، خاصة في الترجمة الشعرية التي هي تحويل واختلاف وإبداع، وهو أيضا يرى أن تعبيره هذا أو ذاك اتخذ لبوسا آخر، باختصار، وهو يرى قصيدته تكتب من جديد. لننظر فقط في هذه النماذج:

غني
ادخلي إليك... وارقصي(...)
في السماء الصغيرة
قرب النهر
ثمة قارب

Chante
(...) Vois en toi-màme...et danse
Dans le bleu du ciel
Tout präs de la riviäre
Il y a une barque

تحول الدخول رؤية وتحولت السماء الصغيرة إلى سماء زرقاء، ليعلن النص أنه ناسخ بالمعنى المزدوج للنسخ.

وتقول الشاعرة:

أرأيت...؟
النوم في حضن محارة
أشهى
من الموت على صدر العبارة
فيقول جلال الحكماوي:

Vois-tu؟
Le sommeil dans les bras des coquillages
Est plus exquis
Que la fauche de la mort dans la main des mots

تتحول الصورة كلية، فإضافة إلى التحول من الصدر بإيحاءات الدفء الذي لا يجتذب الشاعرة وهي تستعيد صورة الرحم والماء في انغلاق المحارة ككائن مائي يحيل على البدايات إلى اليد وهي توحي بالأحرى بالشدة والاعتصار، يختار المترجم صورة كلية يصبح فيها الموت مرتبطا باختطاف الأرواح.

إنه تحول يحدث ناتج عن استثمار بعض أجزاء الجسد وقد ترسخت في صور دلالية ثقافية، بل إن أغلب صور التحول تم في مستوى الجسد في شكل إضافات تمنح النص الفرنسي بعدا حسيا:

حتى في صمتك
تشبه ألمي (ص122)
Màme dans ton silence
Tu as le visage de ma douleur

باحت لك الأعالي
بأسرار الطير

Les hauteurs te murmurent dans le creux de l'oreille
Le secret des oiseaux

من يآخيني
وهذا الصمت؟
من يحلق بي
قصيدةً وارفة الأسرار
Qui me tendra
La main de ce silence?
Qui me mettra sur un tapis volant
Poäme obscur?

* كاتب من المغرب

قص

كرنفال البوبيّات

إنصاف قلعجي*

■ ينفجر بالون في صدري..ثم يرين صمت.تمور بالونات وتتدحرج أمامي على الدرج..أحمر أزرق..ويتوه بي الأصفر.بلهاء ربما كانت ، تتساقط مع البالونات إلى الأسفل..السقوط دائما للأسفل.لو فقط بقيت التفاحة على الشجرة ولم يلحظها النائم تحتها. هل بردت خطاها على الدرج من شدة الخوف..لعلها..

كان الليل يغمر الغرفة وقطع الأثاث/يتسلل ضوء خافت عبر الستارة المسدلة وينعكس على الخزانة المقابلة حين نطت من سريرها. الصراخ يعلو..ماما..ماما..وبلقيس ، حفيدتي ، تنهرها معلمة الفرنسي(بوتي ديجونيه) والصغيرة بعنادها تردد: الفطور،وأنا ما بحب الفرنساوي.والأطفال داخل الحضانة يصرخون/ قالوا بأن قاضي الأولاد شنق نفسه/لا أحد يجرؤ هذه الأيام لفزعة بين الصغار/..الصراخ يعلو/نطت تتمتم بسم الله الرحمن الرحيم اللهم اجعله خيرا/ظلام داكن أقرب إلى الكحلي/هلع/يتسرب ضوء القمر قليلا عبر الستارة/تعثّرت بالغطاء الملتف حول ساقيها/أين الضوء..مدّت يدها تتحسس السرير الآخر..قلم رصاص ، صحف ، بعض الكتب مفتوحة عند صفحات لم تكتمل قراءتها بعد/أين زر الكهرباء..يعلو الصراخ..ماما..ماما.أسرعت إلى الباب.الباب مغلق/أين المفتاح ، ضاع ضاع المفتاح/عبثا تلوب أين المفتاح/تروح تجيء..كان المفتاح في مكانه .أدارته وأسرعت تقفز الدرجات إلى أسفل/ماما..ماااااااما!!!!!تمسك الدرابزين وهي تشمر عن ساقيها لئلا تتعثر بقميص نومها/ما..ما/عشرون درجة وهي تهرع لغرف البنات.ظلام دامس.أشعلت ضوء الممر.صمت.صمت.الضجيج في رأسها ماما/منذ زمن طويل وهي تسمع هذا النداء ، لعله مذ كبرت البنات ، لعله منذ..إقتربت من الباب ببطء ، وضعت إذنها ، أصغت..فتحت الباب برفق.سمعت أنفاسها.أغلقت الباب.فتحت الباب الثاني .كانت الصبية تقرأ في سريرها.نظرت إليّ مستغربة/قلت :لا شيء/الباب الثالث/كانت الثالثة نائمة..إنسحبت بهدوء وحيرة إلى غرفة الجلوس وارتمت على المقعد الطويل.

ـ عبير..عبير في المحمودية ، تصرخ من العراق..ينهشها الجنود الأميركان.أصم أذنيّ ، ماما..هدى على شاطىء غزة..بابا..ماما..بعد أن دمرتهم قذيفة صهيونية/ ..دم في كل مكان يأتي مع العويل.طفولة تنتحب وأنا أنتحب.

ـ تمسك الصغيرة بسترتي ، تشدني ، ترجوني أن أبقى معها في الحضانة.كان عليّ أن أقطع مسافات عبر قطارات لأصل إلى الجامعة وأرى أستاذي.المطر ينهمر بغزارة ..ثم ضباب كثيف..ثم مطر..مطر.ترددت ، كيف أتركها بين قوم لا يعرفون لغتها ، ودموعها تستنجد بي/تتشنج روحي/تنتابني رغبات التقيؤ في طريق العودة حين نقطع الطريق سيرا على الأقدام / والأخرى بلقيس داخل رحمي ، صامتة ، لعلها تدرك كم تعاني أمها..ماما..ماما..

ـ أسرع للأخرى عبر الهاتف/بصعوبة أتذكر رقم هاتف بيتها/جاء صوتها مرعوبا/قلت وأنا أشهق:هل نادیتني/قالت :سلامة عقلك ماما/وأسرعت بإغلاق الهاتف.

ـ أسأل :هل انتهى دوري بعد أن كبر الصغار/وما يزالون يعبرون ليلي بتوهجهم/بضحكاتهم/بألعابهم/بكتبهم/برسوماتهم /والروح تتطهر بالمكوث مع الأطفال كما قال كاتب كبير/أما خوزيه أركاديو وقد اهترأ في عباءة الزمن ، فقد كانت سلواه الوحيدة أن يجمع أطفال القرية ويأتي بهم كي يلعبوا عنده.كان يرى معهم وقت القيلولة وهم يقفزون في البستان على الحبال ويغنون تحت الشرفة ويلعبون ألعاب التوازن على أثاث غرفة الجلوس وهو ينتقل من مجموعة لأخرى يلقي عليهم دروسا في حسن السلوك....وكأن البيت صار مدرسة داخلية لا نظام فيها (مائة عام من العزلة).

ـ إلى شارع بلقيس المتفرع عن شارع أريتيريا في أم أذينة ، أشد رحالي ربما كان أمس/هل حقا ما قاله أحدهم بأن الوصفة لسعادة كاملة هي أن تكون مشغولا جدا بشيء غير مهم/ولكن حين يرحلون من عالم طفولتهم ، يتركون ذاكرتهم لي..ماذا فعلت الصغيرة بلقيس بي/وقد قالوا:الفالحة بتغزل على ذنب كلب/قالت:تمددي على الكرسي بس ليش عيونك كبار يا تيته/لم تكن قد أكملت الرابعة/لن تكوني صغيرة أبدا/نسلت خيطا من علبة الجبنة/لعلها البقرة التي ضحكت قبل حادثة هولندا/وضعت الخيط الأحمر في طرف فمها وقالت بجدية:لا تتحركي واقتربت بالخيط من وجهي/ماذا تفعلين/قالت:أزيل الشعر عن وجهك/من علّمك هذا/قالت:هيك بيعملوا في صالون الشعر/...شعر البنات/الحلوى الوردية حين يمر البائع في الحارة مسبوقا بصوت الهارمونيكا الشجي لتدل عليه/ما يزال الشجن في أذنيّ وطعم الحلوى يذوب في فمي.

ـ أخلع أوجاعي وأقنعتي وأدخل في محرابهن..الحضانة /يأتون دائما باكرين ، بعيدا عن حضن الأم الدافيء ،وما يزال الحبل السريّ يمتد / من قال إنهم يقطعون الحبل السريّ عند الولادة /وقد قالت أمي:الحمد لله على الخلاص والخلقة بين الناس/النوم في عيونهم ، يحملونه مع مناماتهم العالقة تحت ثيابهم/هل كان لي طفولة مثلهم/ذهبت إليهم لأبحث عن طفولتي بينهم/لأبحث عني/كرنفال طفولي/صواريخ ورقية ملونة تتطاير /صخب مرح ضحكات/يريدون أن أصنع لهم طائرة ورقية/كدت أقول لهم بأنني أخاف ذكر الطائرات/طائرات تحمل دائما دمارا/ينشلني من غيابي أصوات بالونات تفرقع/يقفزون فرحين/نريد طائرة ملونة/أجلس بينهم على كرسي صغير حول طاولات صغيرة ملونة/أذوب بينهم/صخب/لكنهم يثيرونني بعالمهم البريء/قلت:أنا جاك/وجموا/جاك عازف المزمار .هل تعرفون القصة/هزوا رؤوسهم بالنفي/جاك حين صفّر في مزماره ، لحقه كل أطفال المدينة ،كما تفعلون حولي الآن/طفولة ، ضجيج ، والمعلمة تلاحقهم ليلتزموا الهدوء/راشد يقبّل ساندرا/يتعانقان/لا يتركان للأيام القادمة سوى عبق طفولة بريئة من خلال شفاه صغيرة/أين طفولتي/وجه ملفع بالشجن /هاتفني الصغير قال :تعالي باكرا للحضانة في الساعة الواحدة/إختار أصغر الأرقام لاعتقاده بأنه أقرب وقت/تشدني ساندرا من كمي وتسألني:هل تحبين توم أو جيري/قلت:بالطبع أحب الفأر جيري فهو الأذكى/هبة تتأملني:ليش عيونك كبار/كما قال الذئب لليلى/كي نبقى حذرين من أزمنتنا البشعة/لم أقل ذلك/يا تيتة/هكذا يناديني الصغار/قالت بالأمس يا تيتة ليش بتدخني/لأنني حيوانة(يا مواكب العصافير)..جفلت الصغيرة حين كانت غاطة في الرسم وقد انطلق صوت المؤذن/أسرعت إلى الهاتف/الانتركوم/همست :من فضلك وطّي صوتك/نهرتها دون أن أعرف أو تعرف.(بقيت رائحة أمي عالقة بي رغم أنها كانت موزعة بين تسعة أطفال.رائحة أمي منذ زمن غابر..كما هي رائحة كل الأمهات تبقى عالقة في ملابس الأطفال..رائحة الحليب الأول ، اللمسة الأولى على الثدي ، الحنان الأول ، غبش وأحزان متتالية)..أمسك بيد بلقيس الصغيرة/أغني لها:منيمشة منيمشة بعتتني ستي عيشة/تسحب يدها ولسان حالها يردد ما أسحفك/تلك أغان من أزمنة أخرى/وتركت الأراجيح تطوّح لوحدها في الأعالي.

طفل في حضني/آخر يعبث بشعري/ترتفع أصواتهم فجأة بالغناء/العنكبوت النونو نزل عن السطح/أغني معهم/وأغني في متاهات الداخل/تغمرني عيونهم بالتساؤلات/ماما..ماما/يعود النداء/هل تحررت حين كبر الأولاد/أغمض عينيّ/ها هي الحرية تغسل وجهي..تفركني مثل كيس الحمام الخشن/تجدد خلاياي/تأخذ معها بقايا من عهود سابقة/عبودية/أيتها الغيوم اعبري سمائي لأعطيك ما تبقى من الروح/...وكما تنسل روح من روح ، تنسل المشاهد الموجعة ، وتنسل ندى الصغيرة من روحي... /في بيتنا وجع.

طائرة ورقية!كان الصيف يثيرني لأصنع طائرات ورقية من أعواد القصب والأوراق الملونة/مقصات /أوراق لاصقة والخيطان(المصيّص)..ليفرح اخوتي وبعدها أطفالي../ وبعد ساعات من العمل الشاق الممتع ، تعلق الطائرة في عامود الكهرباء ، ويبدأ العويل /نريد طائرة أخرى/ أيها القناص ..تعال اقنصني كي أرتاح /لماذا ذهبت إليهم..إلى الأطفال/ربما لأرى طفولة ما عشتها /ما عرفت منها سوى حنين مبكر للمجهول/وقد كانت الرغبات تنمو بخوف/وأخوة يتصارعون/وحب علق بالذاكرة مثل نثار غبار/وكتب كانت عالي إلى البعيد/وأطالس الجغرافيا/والسفن..والبحار البعيدة.

تمرّنسمة هواء ،تحرك الستارة البيضاء/أخاف أن أعود لغرفة النوم/أن تعود ماما ماما/وهو رحل/رحل من كل الماضي/قال :مسترجلة ! نسي أنني أحمل سيزيف على ظهري منذ ولدتني أمي/وأحمله في رحمي الذي لا ينجب إلا بنات رائعات/وأحمل جراحات لا علم لأحد بها.

تنهمر دموعي/مطر يشتاق لأرض صلبة/حنونة/وتراب عطش منذ دهر/أخفي وجهي لبرهة لئلا يلاحظ الأطفال بكائي/وفجأة يأتي صوت هبة:طيب ليش ليلى قبل ما يجيها الذئب ما كان عندهم سيرلنكية/كانت الحياة أجمل/وكانت الدنيا أمان يا حبيبتي../ سيف يا سيف ، يمد يده ليلمس وجهي/لماذا أنت متوحد يا سيف/الزمان أمامك طويل.. لتتوحد/تكلم أسمعني صوتك/لكنه لا يتكلم/أعانقه/يعانقني بقوة/ويغمر وجهه في صدري / تمتد يده الصغيرة إلى ثديي/صرخت هبة واحمرّ وجهها/تيته بدو يرضع من الزيزيه/وغشي الصغار من الضحك/بلقيس تعلّق: هوّه مو بوبوّ/يسحب سيف يده خجلا/أتحسس الثدي الآخر/ذاك زمان آخر/كل جمال أيل إلى الخراب/ أنا الطفلة ذات الروح المهشمة/. الشموس الملونة تزين الجدران /والأصابع الصغيرة ترسم الأشجار/شمس حمراء تشرق على بحر وقوارب صغيرة/لكنها ليست مثل شمس "الغريب" /أيها الغريب لماذا تحدق بالشمس وبالنصل يعكس أشعتها..

يتزاحم الأطفال للذهاب إلى الحمام/كلهم يريدون "نونو"/وقد اكتشفت المعلمة أن بلقيس تذهب إلى الحمام بكثرة/تبعتها يوما لتجدها لا تذهب للحمام وإنما تجلس في بيت بلاستيكي ملون للأطفال تأكل الحلوى التي أحضرتها من البيت/كميات هائلة من الحلوى/حدقت في عينيها عاتبة/وقد قالت المعلمة:إذا أردت أن تعاقب شخصا فانظر في عينيه مباشرة/لغة العيون/المحاكمة/القضاة/الإدعاء/وقد حذروهم : إياكم أن تنظروا في عينيه.

عاد الأطفال من الحمام/قالوا إحكي لنا قصة/ إنتظروا يا عصافيري (يا مواكب العصافير..نطرتك أنا..ندهتك أنا رسمتك على المشاوير) ، هل تحبون الملبّس /كلهم وبصوت واحد: ياي ياي /أخرجت من حقيبتي كيسا صغيرا مليء بالملبّس قضامة وردية وبيضاء كانت تسمّى ملبّس الملك حسين ، لا أعرف لماذا/يطلون برؤوسهم داخل الحقيبة/لمحت بلقيس صورة ، قالت : تيته هادا هادا/وضعت أصبعي على فمها/عادت تسأل: صح تيته هوّه بالسجن/هززت رأسي/طيّب تيته ليش حبسوه/لأنه ما عرف كيف يقول نعم/صح تيته اليهود حبسوه/نعم اليهود والأميركان و و و/نثرت لهم الملبّس على الطاولة/وعددت لهم القصص التي أعرفها/قالوا نعرفها كلها ونريد قصة جديدة.(كان اسمها أمونة/ضحكوا من الإسم/كان عماد يحبها من دون بنات الحارة.يجلسان عند الغروب ، يرقبان الغيوم تزداد سوادا /تتجه أنظار الأطفال نحو النافذة ليروا الغيوم / يهرب إلى أمونة حين تنهره أمه/إلى بيت الجيران/إلى أمونة/حين تفتح أمها الباب يركله مسرعا إليها/يعانقها ويبكي/ (سوا ربينا) يا أمونة/وكبر عماد وكبرت أمونة/والأغنية علقت/ (معقول الغياب يمحي أسامينا)/وراحت ، يا أولادي ، أمونة إلى بيت الزوجية/فتيتم عماد/كبر وما عادت أمه تضربه)/يا ليتها بقيت تضربه وبقيت أمونة.../صمت طويل ران على الصغار/صرخت هبة فجأة:ليش أمونة تركت عماد/نهرتها بلقيس بحدة: لأنها حيوانة يلعن أبوها صح تيته؟/ همست في أذنها: صح يلعن أبو أبوها/ نهرتها المعلمة/عيب عيب/أطاطيء رأسي فوق الملبّس/تتناثر الحبات وتتساقط على المقاعد الصغيرة/تحت الطاولات/وأترك الصغار يعبثون بشعري/بحقيبتي/وهم يغنون/العنكبوت النونو..

ـ ألمّني فوق السرير/وأصغي إلى ضجيج يأتي من كل الجهات.

* كاتب من الاردن